اسم الدرس : تفسير سورة التين

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

❖ مقدمة

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، بإذن الله عز وجل نستكمل تفسير سور جزء عم. ومعنا اليوم بإذن الله عز وجل سورة التين ﴿والتين والزيتون﴾ [التين: ١].

هذه السورة **سورة مكية** على قول جماهير المفسرين، وبعضهم نقل أن هذا إجماع، وأنه كان هناك في الواقع خلاف بسيط حول كونها مدنية، والراجح من سياقها وطريقة آياتها وخاصة ذكر لفظ الإشارة فيها ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ٢] يدل على أنها سورة مكية.

هذه السورة ضمن سور جزء عم، جاءت حسب ترتيب المصحف بعد سورة الضحى وسورة الشرح.

فنستفتح ونتوكل على الله عز وجل ونتدارس المعاني التي جاءت في هذه السورة العظيمة، لعل الله عز وجل أن ينفعنا بها وأن يجعلها بركة لنا وأن يرفعنا بها في عليين.

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ١-٤] سورة تبدأ بأقسام كغيرها من بعض سور القرآن التي بدأت بأقسام وبواو القسم ﴿والنازعات(١)﴾، ﴿والمرسلات(١)﴾، ﴿والذاريات(١)﴾، ﴿والصافات(١)﴾ وهنا ﴿والتين والزيتون(١)﴾.

كنا سابقًا -أظن أثناء شرح سورة الليل أو سورة الشمس- قد ذكرنا بعض أسباب اختلاف المفسرين حينما تبدأ السورة بقسم أو عند وجود القسم عامة في السورة، **وهي أن المفسرين يجتهدون في الآيات التي تحتوي على قسم في أكثر من جانب:**

١. يجتهدون في تحرير معنى القسم.

٢. يجتهدون في تحديد جواب القسم.

٣. يجتهدون في فهم علاقة القسم بجواب القسم.

فتجد أن اجتهادات المفسرين مختلفة، وهذا ما يؤدي إلى تنوع كبير في الأقوال في تحرير معنى القسم... هل المراد به الظاهر أم له دلالات أخرى؟ مثل الآية التي بين أيدينا هل المراد من القسم هو الظاهر؛ أي ثمرة التين وثمرة الزيتون أم لها دلالات أخرى؟ وذكرنا ما الذي يجعل المفسرين يختلفون في القسم، من أهم أسباب الاختلاف أن القسم يكون بالصفة وليس بالموصوف، الله سبحانه وتعالى لم يقل في سورة العاديات؛ ما هي العاديات، لم يقل مثلًا: والخيل العاديات، إنما أقسم بشيء يعدو، أقسم بمخلوق ينزع ﴿والنازعات﴾، بمخلوقات تَصُفُّ ﴿والصافات﴾ وبمخلوقات تُرسَل ﴿والمرسلات﴾، ﴿والذاريات﴾ لكن ما هي؟ لم يقل: (والملائكة المرسلات) أو (والرياح الذاريات) أو (والخيل العاديات)... فيؤدي هذا إلى اختلاف المفسرين في تحرير من الموصوف بهذه الصفة.

أو يذكر شيئًا واضحًا مثل كلمة الضحى أو الليل أو التين أو الزيتون، لكن بعض المفسرين يرى أن المقصود منها شيء آخر وراء المذكور؛ أي ليس المقصود ثمرة التين وليس المقصود مجرد ذكر الشمس بل لها دلالات أخرى، فيجتهدون في تحرير معنى القسم، وفي تحديد جواب القسم وفي فهم علاقة القسم بجواب القسم.

❖ احتياجنا للوحي

استمرارًا في الحديث عن النفس البشرية واحتياج هذه النفس للوحي، تكلمنا من بداية سورة البروج أن أهل الباطل يحاولون منع وصول القرآن للناس عن طريق التقتيل، أو عن طريق الطعن في النبي صلى الله عليه وسلم ومحاولة قتله، أو عن طريق إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم، وعشنا رحلة حفظ الوحي من أول سورة البروج والطارق ثم الأعلى، وناقشنا بعض المسائل في سورة الفجر والبلد، وبعد ذلك جاءت سورة الشمس والليل والضحى والشرح ثم سورة التين.

من أول سورة الشمس والكلام يدور حول النفس البشرية، بل وحتى قبلها في اقتحام العقبة في سورة البلد أخبرنا الله سبحانه وتعالى بأن هناك طريقين ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ [البلد: ١١] ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧-٨] وفي سورة الليل ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٥-٦] والآية الثانية ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٨-٩] كلها تتحدث عن النفس البشرية واحتياجها للوحي.

استمرت المسيرة وسنجد أن سورة التين أيضًا لها علاقة بموضوع النفس البشرية وتنوعاتها واختلافاتها تبعًا لارتباطها بالوحي وبُعدها عنه، دعونا نرى كيف ورد ذلك من خلال السورة.

بدأت السورة بقول الله عز وجل ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ ثلاث أو أربع أقسام: لو قلنا أن ﴿والتين﴾ قسم و﴿والزيتون﴾ قسم، أو أنهما قسم واحد فيكون الحاصل ثلاث أو أربع أقسام.

أجمع المفسرون أن ﴿هذا البلد الأمين﴾ هو مكة، هذا موضع إجماع في القسم. بقيت الآيتان التي قبل هذه فيهما خلاف، وإن كان الخلاف أقل بكثير في كلمة ﴿وطور سينين(2)﴾، بعض المفسرين قال أنه أيّ جبل طيب مبارك ينبت فيه نبات حسن، وبعضهم قال أنه جبل مخصوص وهو جبل الطور الذي كلم الله عز وجل عليه موسى عليه السلام. إذًا هناك إجماع في ﴿وهذا البلد الأمين(3)﴾ وخلاف قليل جدًا في ﴿وطور سينين(2)﴾، لكن ﴿والتين والزيتون(1)﴾ الخلاف فيها كبير جدًا. نبدأ بـ﴿والتين والزيتون(1)﴾،

ما هو المقصد من قسم الله عز وجل بالتين والزيتون؟

- **بعض العلماء قال**: الأمر واضح، ربنا أقسم بثمرة التين وثمرة الزيتون... لماذا أقسم بهذه الثمار؟ قالوا: لِما تدل عليه من عجيب قدرته وصنعه وخلقه، ولِما فيها من فوائد وبركات.
- **بعضهم قال**: لا، لقد ذكر الثمرة ولكن المقصود ليس الثمرة في حد ذاتها بل المراد بذلك أن هذه الثمرات تنبت في أماكن معينة معروفة بها هي دمشق وبيت المقدس، والمقصد من هذا القسم هو هذه الأماكن المباركة التي أنبتت هذه الثمرات المباركة. وسار على هذا كثير من المتأخرين المعاصرين الذين قالوا أن المقصد ليس الثمرة ولكن المكان الذي تنبت فيه هذه الثمرة، لماذا؟ لماذا تركوا الكلام عن المعنى الواضح الذي هو الثمرة وتجاوزوه إلى المكان الذي تنبت فيه؟ قيل بدلالة المعطوف عليه، إذ أن المعطوفات يجب أن تكون متناسبة فيما بينها سواء كانت مترتبة على بعضها، أو متضادة، أو هي صفات تكمل بعضها، أو تدل على دلالة معينة.

﴿وطور سينين(2)﴾: هذا مكان بالإجماع، سواء كان جبلًا عاديًا أو جبل الطور، ﴿وهذا البلد الأمين(3)﴾ مكان بالإجماع وهو مكة، فقالوا: لكي يحدث تناسق بين الأقسام ﴿والتين والزيتون(1)﴾ المراد منها أيضًا مكان، فيكون إذًا القسم إمّا بثلاث أو أربع أماكن، سواء قلنا التين والزيتون تدل على

مكان واحد مثلما قال بعض المفسرين هو الأرض المباركة في بيت المقدس، أو التين يدل على دمشق، والزيتون دلالة على بيت المقدس فيكون المجموع أربع أماكن، وإن كان بعض المفسرين أبعد وقال أن التين فيه إشارة معينة إلى بوذا وسنذكر مَن قائل هذا الكلام وما دلالته.

الشاهد: قيل أن المقصد هو المكان، وإن أراد الله سبحانه وتعالى بالتين الثمرة وبالزيتون الثمرة، فالمقصد هو المكان الذي تنبت فيه هذه الثمرات.

ما الذي يخص هذه الثلاث أماكن حتى يقسم الله عز وجل بها؟ لماذا أقسم الله تعالى بهذه الأماكن؟ بيت المقدس وطور سيناء والبلد الأمين، لماذا أقسم الله بهذه الأماكن؟ لماذا هذه الأماكن تحديدًا؟ ماذا فيها؟

هل لأن فيها برج التجارة العالمي!

أو لأن فيها أحسن الأسواق لبيع الجوّالات!

لماذا شُرِّفت هذه الأماكن بالقسم؟ لكي نعلم كيف ينال الإنسان التشريف بل والجمادات أيضًا! هذه أماكن نزول الوحي، أعلى وأشرف علاقة للإنسان هي حينما يرتبط بالسماء... في هذه الأماكن حدث أعظم حدث في التاريخ، التاريخ مر بأحداث عظيمة كثيرة جدًا، من بينها أحداث دينية شرعية من إهلاكٍ للظالمين وإنجاءٍ للمظلومين، كإغراق فرعون وغير ذلك وإنقاذ إبراهيم عليه السلام، مرّ التاريخ بهذا وإن لم نشهد ذلك بأعيننا ولكننا نوقن به لأن الله عز وجل ذكره في القرآن، مرّ التاريخ بأحداث عظيمة جدًا؛ كمنظر إلقاء عصا موسى عليه السلام والعصا تلتقم الثعابين من السحرة، هذا مشهد يتمنى الإنسان لو كان موجودًا في هذه اللحظة، ويتمنى لو رأى كيف أن إبراهيم عليه السلام دخل في النار ولم تؤثر فيه، كان يتمنى الإنسان أن يشهد هذه الأماكن وهذه المواقف، يتمنى لو كان حاضرًا ليرى كيف أن عصًا كان يمسكها موسى عليه السلام بيده تشق البحر نصفين، ويسير موسى ومن معه آمنين في البحر، كان يتمنى أن يشهد مثل هذه الأحداث؛ فيخبرنا الله عز وجل أن هناك أحداثًا أعظم من ذلك وهي **نزول الوحي**. أن الله تكلم بهذا الكلام واختار بشرًا من البشر وأنزل عليه هذا الكلام، هذا هو أعظم حدث يمر بالبشرية حينما ترتبط السماء بالأرض.

هذا الحدث الذي كان يبكي عليه الصحابة حينما انقطع... لما زار أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب أم أيمن فبكت، قالوا: وما يبكيك؟ أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسوله من الدنيا؟ قالت: نعم أعلم ولكن أبكي لانقطاع الوحي.. فبكيا، أقرّاها على حزنها وبكائها، فهذا أمر يستحق البكاء لانقطاع الوحي من السماء، كانت فترة عجيبة حينما ترتبط الأرض بالسماء... يحدث حدث في داخل البيوت فينزل الوحي ليتكلم بهذا الحدث، إما معلمًا أو مرشدًا أو فاضحًا لما في صدور المنافقين ﴿يحذر الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤] تخيل أن من يسير على الأرض يحذر أن ينزل كلام من السماء ينبئ العالم بما يحدث في قلبه ولا يستطيع أن ينكر، تخيل هذا الموقف.

فأقسم الله -عز وجل- بهذه الأماكن تعظيمًا لها لأنها أماكن نزول الوحي.

قال بعضهم كما أن التين والزيتون ثمرات مباركة، فربط الله -عز وجل- بين بركات الدنيا وبركات الدين، وكما أن الناس يحتاجون للثمار النافعة كذلك يحتاجون إلى كلام الله -عز وجل-، فأقسم الله بحاجة الأبدان وحاجة الأرواح، لأن ﴿وطور سينين* وهذا البلد الأمين﴾ قلنا هذه أماكن نزول الوحي، وجماهير المفسرين ﴿وطور سينين(٢)﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى، ﴿وهذا البلد الأمين(٣)﴾ قلنا هناك إجماع أنها مكة، وقلنا المقصد الأساسي اللي اتفق عليه الجماهير أن المكانين هما أماكن نزول الوحي.

﴿التين والزيتون(١)﴾ **قالوا**: هذا مكان سيدنا عيسى ونزول الإنجيل على عيسى -عليه السلام-، **وبعضهم قال**: أن التين يقصد به دمشق وهو مكان مُهاجَر إبراهيم عليه السلام، والزيتون هذا مكان نزول الإنجيل على سيدنا عيسى وطور سينين وهذا البلد الأمين سيدنا موسى والنبي محمد -صلى الله عليه وسلم-، **وبعضهم قال**: مثلما قلنا، المقصد المكان **وبعضهم قال**: المقصد الثمرة.

وكأن بركات الدين والدنيا يجتمعان حين يرتبط الناس بالوحي ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ [الأعراف: ٩٦] فالتين والزيتون ثمرات مباركات، وبعضهم قال كما أن الجسم يحتاج إلى غذاء وهذه من أنفع الثمرات وأطيبها كذلك يحتاج الإنسان إلى غذاء للأرواح بكلام الملك -سبحانه وتعالى-، والإمام ابن تيمية -رحمه الله- أشار إلى أنه يمكن أن يكون هناك احتمال أن المقصود بالتين هو رسالة بوذا وكان -رحمه الله- يرى أن بوذا كان نبيًا وحُرفت ديانته بعد موته، وذكر اختلافًا في أسماء النبي الذي أُرسل إلى أهل هذا المكان، وأنه كانت هناك شجرة تين عظيمة نزل عليه

الوحي فيها، فحاول شياطين الإنس والجن فتنته ولكن ثبته الله –عز وجل– ونشر الرسالة، وما هناك من خير هو بقايا وحي مما أُرسل إلى هذا النبي، وكل تعاليم السماحة والخير هي من بقايا هذا الخير، و قال أن الجمع بين رسالة بوذا ورسالة المسيح –عليه السلام– أن كلاهما بُني على السماحة والفضل، والجمع بين رسالة موسى ورسالة النبي –صلى الله عليه وسلم– أن كلاهما بُني على العدل والجهاد، فلم يكن هناك جهاد في رسالة بوذا والمسيح، وإنما وجد الجهاد في التوراة وفي القرآن فكلاهما مبني –شريعة موسى عليه السلام ومحمد عليهما الصلاة والسلام– على الجهاد والعدل، وقال: أن الله اختار ثمرات طيبة رقيقة وهي التين والزيتون مع رسالة بوذا ورسالة عيسى، والأماكن الجبلية مع شريعة موسى وشريعة محمد عليهم –الصلاة والسلام–، هذا اجتهاد من الإمام ابن تيمية –رحمه الله–.

الشاهد: أن جماهير المفسرين أميل إلى أن المقصد هو القسم بهذه الأماكن، وأنها أماكن شهدت أعظم أحداث في التاريخ، وهي أن الله يتكلم بكلام فينزل على بشر من خلقه في هذه الأماكن فارتبطت هذه الأماكن بالسماء، جماهير المفسرين وخاصة المتأخرين مالوا إلى هذا القول.

❖ مقاصد بعض سور ع

كأن المقصد الأساسي، بعدما انتهينا من فترة الشمس في سورة الشمس و التي تناولت أن النفس تحتاج إلى تسوية وتزكية، فتحتاج إلى وحي ثم جاءت سورة الليل والضحى لتبين صعوبة الفترات التي تمر بدون وحي، فكما ذكرنا سورة الضحى تتحدث عن فترة الوحي أي توقف نزول الوحي لفترة على سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – ثم جاءت سورة الشرح تشرح صدر النبي –صلى الله عليه وسلم– بنزول الوحي، فيخبر الله–عز وجل– هنا في سورة التين أن هذه الأماكن أعظم الأماكن التي نزل فيها الوحي الذي يُشرح به صدر الإنسان، ثم تأتِ بعد سورة التين سورة اقرأ لبدايات الوحي ثم سورة القدر لزمان الوحي، ف اقرأ جاءت بين المكان والزمان.

المهم أن هذه الأقسام الثلاثة أقسم الله –عز وجل– بها وهي أماكن نزول الوحي على الأرض كما ذكرنا، هذا أعظم حدث في التاريخ يفرح به الإنسان، قال الله تعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾[يونس: ٥٨] قال جمع من أهل العلم: فضل الله ورحمته هو القرآن، وقيل القرآن والإسلام، **فالإنسان يحق له أن يفرح بالقرآن، أن يمسك القرآن بيده ويفرح أن الله أنزل له هذا القرآن، نعمة عظيمة تستحق الشكر** ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾[الكهف: ١]

الحمد لله أن الله أنزل الكتاب وحفظه من التبديل ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا﴾[الكهف: ١] الحمد لله أن الله حفظ القرآن ﴿قيمًا﴾[الكهف: ٢] أي ليقيم الناس، ويقيم أفعالهم ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾[الإسراء: ٩]، (سورة الكهف) التي جاءت مليئة بالفتن، وتبين لنا كيفية العصمة من الفتن بدأت بحمد الله على نعمة الوحي، وبدون الوحي يُفتن الإنسان، فعلى قدر ارتباط الإنسان بالقرآن على قدر حفظ الله له من الفتن، وعلى قدر بُعد الإنسان عن القرآن على قدر سقوطه في هذه الفتن، فبدأت السورة التي تعصم من أعظم فتنة وهي فتنة الدجال –سورة الكهف– بدأت بحمد الله على هذه النعمة، نعمة الوحي ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا﴾[الكهف: ١].

❖ أحسن تقويم

فيقول الله –عز وجل– ﴿والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين﴾ جواب القسم ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ يؤكد الله –عز وجل– أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم، أحسن تقويم في ماذا؟ قال بعض المفسرين: في الخلقة، في الشكل، في الصورة، في الأمور الحسية، وأيضًا في الأمور المعنوية، فأعطاه الله –عز وجل– العقل، لذلك أمره وكلفه، أي أنزل عليه التكليف ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان﴾[الأحزاب: ٧٢] هذ التكليف، حمل أمانة التكليف ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾[البقرة: ٣٠] الخلافة: أن يطبق مراد الله في الأرض، فالملائكة التي تطبق مراد الله في السماء مسيَّرة وليست مخيرة ﴿لا يعصون الله ما أمرهم﴾[التحريم: ٦]، أما الإنسان أنزل الله أمانة الاختيار عليه، فالإنسان نزل عليه التكليف في الأرض فهذه أمانة في الأرض، فقال الله –عز وجل– أن طبيعة خلقه للإنسان مهيأة لينزل عليه القرآن ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾[التين: ٤].

وقالوا هذه **العلاقة بين القسم وجواب القسم**، فالقسم أماكن نزول الوحي، وجواب القسم أن الإنسان خلقه الله –عز وجل– وجعله يستطيع، بل مهيأ لتلقي الوحي ﴿أحسن تقويم﴾ فطرة الإنسان مناسبة للوحي، الإنسان مفطور أنه يحتاج إلى وحي، يحتاج إلى قرآن، يحتاج إلى كلام من الله وإلا يضل.

كما قال الله لسيدنا آدم بعدما عصى ﴿اهبطوا منها جميعًا﴾[البقرة: ٣٨] ونزل آدم إلى الأرض، نزول آدم إلى الأرض يحتاج معه إلى توجيه، ماذا يفعل في الأرض؟ فقال الله ﴿فإما يأتينكم مني هدى فمن

اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾[طه: ١٢٣] فطالما نزلت إلى الأرض فأنت تحتاج إلى هدى معك، لن تستطيع أن تتحرك بدون هدى، والعجيب أن الله -عز وجل- لما عاقب آدم قال له: اهبط إلى الأرض، فكانت الأرض عقوبة، ونحن الآن نتمسك بالأرض ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾[التوبة: ٣٨] ﴿مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض﴾[التوبة: ٣٨] فوجودنا في الأرض عقوبة وامتحان لنعود إلى الجنة، فمن الناس من رضي بها ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها﴾[يونس: ٧] فلما نزل إلى الأرض كان يحتاج معه إلى هدى، وهذه بداية قصة البشرية منذ البداية، وجود الإنسان على الأرض لا يعرف كيف يتصرف، وبالتالي لا بد أن يكون معك هدى... أنت نزلت إلى الأرض.. كيف ستعيش على الأرض ومعك شهوات، فكيف يوجه شهواته هذه؟ ثم بعد ذلك يتكاثر الناس ويكثر النسل فكيف يتعامل مع الناس؟ فإذا أراد شيئًا ولم يرض صاحبه مثلًا هل يقتله؟! وإذا كانت هناك شهوة معينة هل كل ما أشتهيه أفعله؟! فما الذي يحكم شهواتي؟ كيف أحكم نفسي؟ كيف أعيش سعيدًا؟ كيف أتجنب المعيشة الضنك؟ كل هذه الأسئلة، كيف جئت إلى هذه الأرض؟ وإلى أين سأذهب بعدها؟ وبعد الموت أين سأذهب؟ ولماذا سأموت؟ وماذا سيحدث للأرض؟

كل هذه أسئلة داخل فطرة الإنسان لا إجابة عليها إلا بالوحي. لذلك قال الله لآدم: ما دمت ستنزل إلى الأرض فلابد أن يكون معك هدى تتبعه وإلا ستضل وتشقى.

❖ فُطِر على تلقي الوحي

فقال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم(٤)﴾ **إذًا الإنسان مفطور ومهيأ لقبول الوحي، لذلك إذا وجد الإنسان عنت ومشقة في تطبيق الوحي فهذا دليل أن فطرته قد بدأت تتغير وبدأ يحدث مسخ وتشويه للفطرة لأن الوحي مناسب للفطرة**... إذًا الإنسان مخلوق في أحسن تقويم في الخلق -مُسَوَّى في البدن- وكذلك في الفطرة، فما يحدث من إبعاد الناس عن الوحي وعن القرآن وعن الشريعة هو مسخ لفطرتهم، لذلك عندما يبتعد الناس عن القرآن ثم يُعرض عليهم الشرع، يشعرون بأنه صعب، لأن فطرتهم تغيرت وانتكست (فاجتالتهم الشياطين)[١] (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه إمّا يهودانه أو ينصرانه أو يُمجّسانه)[٢].. فقال النبي صلى الله عليه وسلم

---

[١] (يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أُنزل به سلطانا) الراوي: عياض بن حمار | المحدث: ابن تيمية | المصدر: مجموع الفتاوى | الصفحة أو الرقم: ٤٦٦/١٠ | خلاصة حكم المحدث: **[صحيح]**

[٢] (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء)

(كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها من جدعاء)[٢] -هل ترون بهيمة مولودة وأذنها مقطوعة- حتى تكونوا أنتم تجدعونها... هل رأيتم مثل ذلك من قبل؟ فقالوا لا يا رسول الله.. البهائم تنزل مجتمعة، فشبه النبي صلى الله عليه وسلم ما يفعله الناس والأقربون في تشويه الفطرة بالذي يقطع أذن البهيمة، وقد كان هناك إشارة من بعض شُرّاح الحديث.. لماذا قطع الأذن؟ قالوا لأن أول شيء يفعله مُشوِّه الفطرة أنه يقطع أذنه عن سماع الوحي، **فأكثر شيء يحافظ على الفطرة وينميها ويزكيها هي الاستماع إلى الوحي**، وأكثر شيء يشوّه فطرة الإنسان أن يضع الكُرسُف في الأذن مثلما كان يفعل أهل مكة، حيث كانوا يقومون بتوزيع القطن لكي يضعه الناس في آذانهم كي لا يسمعوا القرآن ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾[فصلت: ٢٦]، فأكبر جريمة أن يبتعد الإنسان عن القرآن.

فقال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ(٤)﴾ إذاً، هذه أماكن شهدت بذلك، شهدت أن الإنسان يرتقي إلى أعلى عليين لدرجة أن يصطفي الله أناسًا منهم يتلقون كلامه سبحانه وتعالى، وشهدت هذه الأماكن من الطاعات والعبوديات والبذل من أتباع الأنبياء إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ما تعجز الأقلام عن طرحه وعن كتابته وعن وصفه، شهدت هذه الأماكن عبوديات عظيمة تدل على أن الإنسان فُطِر على تلقي الوحي، حينما يرى الإنسان مجهود أتباع الأنبياء وخيرهم صحابة النبي صلى الله عليه وسلم يوقن أن الإنسان مفطور في أحسن تقويم وأنه يستطيع أن يتلقى هذا الوحي.

فأخبرنا الله عز وجل من أول سورة الشمس وحتى الآن أن النفس البشرية عندها القدرة أن تصل إلى أعلى عليين أو تنزل إلى أسفل سافلين، كيف تصعد إلى أعلى عليين؟ ربنا قال: "بالتزكية" ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩)﴾[الشمس: ٧-٩] كيف أُزَكّي نفسي؟ بالوحي، والتين والزيتون وبعدها اقرأ والقدر، فإذا كنت تريد أن تصل إلى أعلى عليين ارتبط بالقرآن، لذلك يُقال يوم القيامة (اقرأ وارتقِ)[٣]، القراءة معها ارتقاء، معها علو، إذًا لا توجد قراءة معها نزول، لذلك ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)﴾ بعدها ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥)﴾ إذًا البعد عن القرآن معناه النزول إلى الأسفل، فكلما ارتبط الإنسان بالقرآن ارتفع، لأن الإنسان مخلوق من

الراوي: أبو هريرة | المحدث: البخاري | المصدر: صحيح البخاري | الصفحة أو الرقم: ١٣٨٥ | خلاصة حكم المحدث: [**صحيح**]

[٣] (يقال لصاحب القرآن: إقرأ، وارتقِ، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها)

الراوي: عبد الله بن عمرو | المحدث: الألباني | المصدر: صحيح الترمذي | الصفحة أو الرقم: ٢٩١٤ | خلاصة حكم المحدث: [**حسن صحيح**]

طين –والطين شهوات– مع نفخة من روح الله عز وجل، الجسد يحتاج إلى غذاء من الطين والقرآن يُغذي الروح، وحينما يفقد غذاء الروح يضمر ويموت واعظ الله في قلب كل مسلم، فلا يتبقى إلا تحقيق الشهوات، فينزل إلى مرتبة أخس من الحيوانات والعياذ بالله، يصل إلى مرتبة البهيمية ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[الفرقان: ٤٤] والعياذ بالله، تخيل عندما يعيش شخص ويكون أضلّ من الأنعام والعياذ بالله، فقال الله عز وجل ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ(٤)﴾ إذًا يقول الله عز وجل في سورة "الحجرات" كانت هناك اقتراحات تُقترح على النبي صلي الله عليه وسلم، فقال الله عز وجل ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ صلى الله عليه وسلم ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾[الحجرات: ٧] العَنَت: "المشقة" لو النبي صلى الله عليه وسلم ترك الوحي وسمع اقتراحاتكم ستعيشون في مشقة، الوحي هو الأفضل لكم، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾[الحجرات: ٧]. أنت الآن تشعر بأن الدين ثقيل عليك، ليس الحل أن تُغيّر الدين، بل **الحل أن تتغيّر أنت**، ولذلك تكملة الآية: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ* فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[الحجرات: ٧-٨]، إذًا ليس الحل إذا وجدنا شيئًا صعبًا في الدين أن نغيرها، بل نجاهد ونجد أنها تُحبّب إلينا، ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ﴾[الحجرات: ٧] بدلًا من أن يسمع النبي كلامكم ولكنَّ الله من فضله لذلك قال: ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾[الحجرات: ٨] ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾بالحجرات:٧-٨] إذًا ليس الحل البحث عن البدائل الأخرى غير الوحي، بل الوحي هو المناسب للفطرة، أخلاق الدين هي المناسبة للناس، لفطرة الناس، عندما نجد عنتًا ومشقةً من الناس أثناء طرح الوحي عليهم ليس الحل أن نُغيّر ونقول لهم: اتركوا هذه السورة، اتركوا هذه الآيات، اتركوا هذه الأحكام، اتركوا هذه الشريعة، ليس هذا هو الحل لأنهم سيعيشون في عنت، سيعيشون في مشقّة ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾[الحجرات: ٧]

إذًا الحل أن نجاهد بهذا الوحي، فمِن كرَم الله أنه يحبب إليهم الإيمان مره أخرى ويزينه في قلوبهم ويبغِّض ويُكرِّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ليس الحل في البحث عن بدائل للقرآن، بل الحل التمسك بالقرآن، ومن عِظم هذا القرآن –وهذه خاصية في الوحي الذي أُوحي للنبي صلى الله عليه وسلم– أنه اجتمع فيه أنه رسالة (وحي) ومعجزة، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ

مَا أُعطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا على مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُه وَحْياً أَوْحَاه الله إِلَيَّ)[٤]. **كأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول إن معجزتي الأساسية هي القرآن**، كل نبي كان معه معجزةٍ، فكل نبي من الأنبياء مثل سيدنا موسى وسيدنا عيسى كان معه معجزة ورسالة، فقد كان سيدنا عيسى يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى وينفخ في الطير، يصور الطير كهيئة من الطين فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، هذه المعجزة، وكان معه رسالة وهي الإنجيل. سيدنا موسى كان معه المعجزة –العصا وغيرها من المعجزات– وكان معه رسالة وهي التوراة، والنبي صلى الله عليه وسلم اجتمعت المعجزة والرسالة في شيء واحد وهو (القرآن)، فلم يقل النبي صلى الله عليه وسلم لقومه: سآتيكم بمعجزة حسيّة مثل موسى وعندما تصدقوني سآتيكم بكلام الله (القرآن)، بل اجتمعا، **اجتمعت المعجزة والرسالة في (القرآن)**، لذلك القرآن كتاب هداية وكتاب تحدٍ، يجب أن نتعامل مع القرآن مثل ما هو كتاب هداية نتعامل معه أيضًا على أنه كتاب تحدٍّ، فحينما تأتي لتتحدى بمعجزة تتحدى بالقرآن وليس بغير القرآن، وبعدما تتحداه بالقرآن ويُقهر بالقرآن تهديه بالقرآن، فاجتمع في القرآن: الرسالة والمعجزة، ومن يبتعد عن القرآن تنتكس فطرته وتتغير وتتشوه.

لذا قال الله –عز وجل– بعدها ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسفَلَ سَافِلِين(٥)﴾ **وهنا ذكر العلماء:**

- **أنه من قال منهم أن المقصود** في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ(٤)﴾ أساسًا تسوية البدن فـ﴿ثم رددناه أَسْفَلَ سَافِلِين(٥)﴾ تعني أن يصل الإنسان إلي نهاية العمر كأحد تأويلات قوله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِسْهُ فِي الخَلْقِ﴾[يس: ٦٨] لأن الإنسان يمر بمراحل ضعف ثم قوة الشباب ثم ضعف في آخر عمره، فيكون المقصود حالات ضعف العقل وضعف الكلام التي يصل إليها الإنسان في آخر عمره. فكأن المقصد الحقيقي في هذه الآية: كما أن الإنسان يمر بهذه المراحل، كان ضعيفًا ثم قويًا ثم ضعيفًا، كذلك الحياة.. فيموت الإنسان ثم يُبعث مرة أخرى فهذه دِلالة على البعث.
- **وبعضهم قال**: إن المقصد الأساسي في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ(٤)﴾ هو تسوية البدن وتسوية النفس والفطرة.

---

[٤] (مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ مَا أُعطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا على مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُه وَحْياً أَوْحَاه الله إِلَيَّ، فارجوا أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة).

الراوي: أبو هريرة | المحدث: البخاري | المصدر: صحيح البخاري | الصفحة أو الرقم: ٤٩٨١ | خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

وقوله تعالى ﴿ثم رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ(٥)﴾ أي: سيدخل النار والعياذ بالله، وقد قيل أنها تعني ذلك لأن النار يأتي معها التعبير بالإلقاء عكس الجنة فيها صعود ودرجات... كقوله تعالى ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾[الليل: ١١] أي سقط في جهنم ، (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله فيهوي بها في نار جهنم..)[٥] ، الصراط أيضًا منصوب على جهنم فالذي سيقع من على الصراط سيسقط في النار ... فالنار فيها سقوط ونزول إلى دركات والجنة بها صعود ودرجات، فقالوا: ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ(٥)﴾ لأن الإنسان أول شيء يسقط ثم –حتى إذا كان المقصود تسوية البدن– الإنسان يكون عياذًا بالله في صورة مشوهة في صورة قبيحة في النار.

وذكر بعض العلماء: أن من شدة العقاب أن يتغير شكله لصورة خنزير أو صورة الذر كما يحشر المتكبرون يوم القيامة، وذلك من العذاب النفسي، تخيل أن شكل الإنسان يتغير ولا يستطيع مقاومة ذلك كما قال تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾[البقرة:٦٥] تخيل إنسانًا يتحول إلى قرد ولا يستطيع أن يمانع، هيئته وشعره وكل معالمه تتغير إلى صورة القرد ولا يستطيع أن يمانع قدرة الله سبحانه وتعالى، كما أن الموت يقهره، وكما أن النوم يقهره، وكما أن الجوع يقهره، كذلك أوامر الله الكونية تقهره عندما يرفض الأوامر الشرعية، فكذلك الذي أعرض عن الوحي يُلقى في جهنم في أسفل سافلين.

❖ رحلة السقوط

إذًا كلمة ﴿رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ(٥)﴾ هي رحلة السقوط حينما نبتعد أو حينما يبتعد الشقي عن الوحي عياذًا بالله، هذه الرحلة كما أنها في الآخرة تكون في جهنم، تكون أيضًا في الدنيا رحلة الانتكاس، أسوأ رحلة يمر بها الإنسان حينما يبتعد عن الوحي.

إذًا ابتدأت السورة بأماكن نزول الوحي ثم قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم(٤)﴾ أي أحسن تقويم لأنه نزل عليه الوحي وبعده عن الوحي يدنس نفسه فقال الله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ(٥)﴾ يوجد محذوف هنا فيكون المعنى: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم يستطيع أن يتلقى وحيًا من الله فإذا أعرض عن هذا الوحي رددناه أسفل سافلين فنزل إلى مرتبة أخس من البهائم في الدنيا وفي الآخرة.

---

[٥] (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله فيهوي بها في نار جهنم سبعين خريفا)
الراوي: أبو هريرة | المحدث: الألباني | المصدر: صحيح بن ماجه | الصفحة أو الرقم: ٣٢٢١ | خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

وكما ورد عندما يطلب إبراهيم عليه السلام ألا يخزيه الله عز وجل يوم القيامة فيتحول والده –لأنه أعرض عن طاعة الله عز وجل وطاعة إبراهيم– يتحول إلى بذيخٍ –أي ضبع– متلطخ، أي تتغير صورته ثم يلقى في جهنم عياذًا بالله.

فمن العقاب، هذا التشويه الجسدي الذي قد يحدث للمعرضين عن الوحي في الآخرة، ويحدث مثله تشويه نفسي وفطري للمعرضين عن الوحي في الدنيا، فكثرة القيام بالقرآن وقراءة القرآن هو بمثابة عمل صيانة للنفس البشرية حتى لا تضل ولا تزيغ.

لكي تطمئن أنك لا زلت إنسانًا سويًا إذًا تفاعل بمشاعرك مع القرآن، قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ..﴾[البقرة: ١٣٠] إذًا الابتعاد عن ملة إبراهيم، الابتعاد عن الوحي هو من السفاهة ﴿سَفِهَ نَفسَه﴾ أي: ضيَّع نفسه بحماقته.

إذًا هناك رحلة للسقوط؛ حين ترى أوصافها في القرآن بمعنى ما هي حياة الذي يعيش بعيدًا عن نور الله، عن الوحي؟... فكلمة السقوط ذكرت في سورة الليل ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾[الليل: ١١] و هنا في سورة التين ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ..﴾... وذكرنا أن هذا السقوط إما معنوي؛ تشويه نفسي وفطري يحدث للإنسان في الدنيا، أو سقوط في جهنم ينزل إلى أسفل سافلين، أو تشويه جسدي يحدث له في الآخرة... ونستكمل رحلة السقوط بعد شرح الآيات التالية.

ثم قال تعالى ﴿إِلَّا الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيرُ مَمْنُونٍ(٦)﴾

أي إلا الذين ءامنوا بالقرآن، بوحي الله، وطبقوا مراده وعملوا الصالحات التي دلهم عليها الوحي –والوحي لا يأمر إلا بالصالح– لم يكتفوا بمجرد الإيمان، هؤلاء لهم أجر غير منقطع أي ممتد لهم إلى يوم القيامة.

❖ أسرار المداومة على الطاعات

والذي ذكر أن ﴿رددناه أسفل سافلين(٥)﴾ أي بلغ من الكبر عتيًا حتى قل عقله وقل كلامه وقلت حركته؛ قال: المؤمنون إذا بلغوا هذا العمر ولم يستطيعوا أن يعملوا الصالحات كما كانوا في قوتهم فالله عز وجل يتم لهم أعمالهم التي كانوا يعملونها وهم شباب... وهذه من بركات وأسرار المداومة على الطاعات، تستمر لهم الأعمال وكأنهم يعملونها فضلًا من الله... أي أن شخصًا بلغ مثلًا تسعين عامًا لا يستطيع

القيام ولا الحركة ولا يفهم ما يقال له، لكنه كان محافظًا على الأعمال الصالحة من قراءة القرآن والنزول للمساجد وغير ذلك تكتب له هذه الأعمال الصالحات.

﴿غَيرُ مَمْنُونٍ(٦)﴾ **أي**: غير منقطع لكبر سنهم وهذه من أسرار المداومة على الطاعات. فهناك سر من أسرار المداومة على الصلاة حينما يمرض الإنسان أو يسافر يقول الله عز وجل ولاسيما في المرض يقول لملائكته (أنا قَيَّدتُ عَبْدِي بقَيدٍ مِنْ قُيُودِي)[٦] فَاكْتُبُوا لَهُ مَا كَانَ يَعْمَل صَحِيحًا وفي رواية (إِذَا مَرِضَ العَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَل صَحِيحًا مُقِيمًا)[٧]... المداومة لها سر في علاقتك بالله، أيضا الذي يكثر من الأعمال الصالحة في الرخاء يمنّ الله عز وجل عليه بتفريج الكربات في الشدة وفي قوله تعالى: ﴿فَلَولَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسَبِّحِينَ..﴾[الصافات: ١٤٣] قال جمعٌ من المفسرين ونسبه بعضهم إلى الجمهور: ﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾[الصافات: ١٤٣] أي لولا أن يونس كان من الطائعين في وقت الرخاء فلما وقع في الشدة نجاه الله.

فالمداومة لها سر فيستمر معك الأجر، فالمداوم له علاقة خاصة بالله. وكأن الذي يداوم على الطاعات كأنه يقول لربه: مهما كانت الظروف سأحاول قدر المستطاع بذل هذه الطاعة فإذا جاءت ظروف طارئة أتم الله له النعمة.

نعود لرحلة السقوط بعيدًا عن القرآن ﴿ثم رددناه أسفل سافلين(٥)﴾... القرآن ذكر أوصافًا كثيرة لحياة الإنسان البعيد عن القرآن ..فقال تعالى أنه يعيش معيشةً ضنكًا ﴿وَمَن أَعرَضَ عَن ذِكري فَإِنَّ لَهُ مَعيشَةً ضَنكًا﴾[طه: ١٢٤]

- وقال عز وجل أنه ﴿كأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾[الحج: ٣١] متمزق نفسيًا...
- وقال أيضًا في وصفه ﴿كالذي استهوته﴾ -أي أوقعته في الهاوية- ﴿الشياطين في الأرض حيران﴾ حيران.

---

[٦] (إن العبد إذا مرض أوحى الله الى ملائكته: يا ملائكتي أنا قيدت عبدي بقيد من قيودي، فإنه قبضه غفر له، وإن أعافه فحينئذ يقعد ولا ذنب له)
الراوي: أبو أمامة الباهلي | المحدث: الألباني | المصدر: السلسة الصحيحة | الصفحة أو الرقم: ١٦١١ | خلاصة حكم المحدث: **[صحيح]**

[٧] (إِذَا مَرِضَ العَبْدُ أَوْ سَافَرَ كتِبَ الله تعالى لَهُ من الأجر مثل مَا كَانَ يَعْمَل صَحِيحًا مُقِيمًا)
الراوي: أبو موسى الأشعري | المحدث: الألباني | المصدر: صحيح الجامع | الصفحة أو الرقم: ٧٩٩ | خلاصة حكم المحدث: **[صحيح]**

إذًا يعيش معيشة ضنكًا، في رحلة السقوط كأنما خر من السماء فتخطفه الطير، يعيش حيرانًا...

كلما رأى سرابًا يحسبه ماءً، ﴿أو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن﴾[النور: ٣٩].. الظمآن: يقصد به هنا الذي ليس معه نور لأن هذه الآية جاءت في سورة النور بعد آية النور ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾[النور: ٣٥] شجرة أي القرآن، فلا نور بدون القرآن، ﴿ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور﴾[النور: ٤٠]، فالذي سيبتعد عن نور الله وهو القرآن لن يحصل على النور، فالذين ابتعدوا عن النور شبههم الله –عز وجل– بتشبيهين في سورة النور **الأول**: ﴿أو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن﴾[النور: ٣] ظمآن، **والثاني**: ﴿ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾[النور: ٤٠]، يعيش ظمآنًا في الظلمات... إذًا فهو يعيش معيشة ضنكًا، خَرَّ من السماء تخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق، استهوته الشياطين فهو حيران، يبحث عن أي هدى، ظمآن يبحث عن أي ماء يبحث عن سراب، ظلمات بعضها فوق بعض، ويكون الأمر أصعب بل في شدة الصعوبة على هذا الإنسان الذي ابتعد عن القرآن بعدما ذاقه، إذا ذاق القرآن ثم ابتعد عنه، إذا ذاق لذة الترنم بآيات الله في الليل ثم يبتعد عنها، ذلك أشد ألمًا.. ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨)﴾[البقرة: ١٧-١٨]، قال بعض أهل العلم استوقد نارًا أي حاول أن يرتبط بالقرآن، حاول أن يسمع القرآن، استوقد أي طلب إضاءةً، طلب وقودًا، ونحن قُلنا من أين يأتي الوقود؟ ﴿يوقد من شجرة﴾[النور: ٣٥] أي من القرآن، فاستوقد الألف والسين والتاء أي طلب الوقود، طلبه من القرآن، فبعدما بدأ القرآن ينير له، أعرض، لم يعجبه فأعرض، فربنا يقول هؤلاء ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ﴾[البقرة: ١٧]، يقولون في اللغة كلمة 'ترك' أي عندما أترك شيئًا وأرجع له بعد سنة فأجده كما هو، "الترك" لا يستطيع أن يتحرك، لذلك قال الله ﴿تَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ في عمق الظلمات، أي ليست ظلمة واحدة يحاول أن يتخلص منها، بل ظلمات متشابكة متداخلة بعضها فوق بعض ﴿إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾[النور: ٤٠] ... ﴿فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨)﴾[البقرة: ١٧-١٨]

وأيضًا قوله –سبحانه وتعالى– ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا﴾[الأعراف: ١٧٥].. ذاق الآيات، كان معه آيات فانسلخ منها، انظر إلى شدة الألم النفسي لمن يحاول أن ينزع القرآن من صدره والعياذ بالله، ألمٌ من يحاول أن يمنع نفسه عن سماع القرآن.. انسلاخ كأنك تسلخ جلده، ﴿فانسلخ منها﴾[الأعراف: ١٧٥] وكلمة انسلخ منها أي هو كان بداخلها أي هي كانت تحفظه، ﴿انسلخ منها﴾ فلما انسلخ منها فقد الوقاية والحماية ﴿فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾[الأعراف:١٧٥].. بعد ذلك قال الله عز وجل ﴿فمثله كمثل الكلب﴾[الأعراف: ١٧٦] يا الله! انظر كيف نزل أسفل سافلين! بعدما كان في أحسن تقويم وأعلى عليين، نزل إلى أسفل سافلين، ﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾[الأعراف: ١٧٦].. حيران.. ظمآن.. ظلمات.. معيشة ضنكًا.. خر من السماء.. انسلاخ.. هذه أوصاف البعيد عن القرآن، بل الذي يحمل القرآن ولا يطبقه فهو كالحمار، لأن اليهود قال عنهم ربنا في سورة الجمعة ﴿حملوا التوراة ثم لم يحملوها﴾[الجمعة: ٥] ربنا شبههم بـ ﴿كمثل الحمار يحمل أسفارًا﴾[الجمعة: ٥]، بالرغم من أنها أسفار أي تضيء لكنه لا ينتفع بها، ﴿حملوا التوراة﴾ أي كلفوا العمل بها، ثم لم يحملوها: ثم لم يطبقوها في واقعهم، بل جعلوها مجرد أمانٍ، حروف يتكلمون بها لا يفهمون معناها ولا يطبقونها، فتخيل حتى من سيتكلم ثم فِعْلُه يخالف قوله؛ أمر خطير، وأقل اقتراب من القرآن سبحان الله يأتي بفائدة، فالنبي صلى الله عليه وسلم عندما قال (مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب.. والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها.. ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر... أو لا طعم لها)[٨] أي بالرغم من أنه منافق ارتباطه بالقرآن جعل له ريحًا طيبة، أيُّ ارتباط بالقرآن مبارك ومثمر، أي ارتباط، وأي ابتعاد عن القرآن هو شؤم والعياذ بالله، أي ابتعاد عن القرآن هو قرار النزول في هذه الرحلة إلى أسفل سافلين، نحن نقول دائمًا (اقرأ وارتق)[٩] **الارتباط بالقرآن هو ارتباط إلى أعلى والبعد عن القرآن والانسلاخ من القرآن هو انسلاخ إلى أسفل،** ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦)﴾ تكلمنا هنا في مسألة أسرار المداومة على الأعمال الصالحة، وأن لابد للقرآن أن يثمر عملًا، القرآن يثمر عملًا.

---

[٨] (مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب.. والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها.. ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة، طعمها مر، ولا ريح لها)
الراوي: أبو موسى الأشعري | المحدث: الألباني | المصدر: صحيح ابن ماجه | الصفحة أو الرقم: ١٧٨ | خلاصة جكم المحدث: [صحيح]

[٩] سبق تخريجه تحت رقم(٣)

وأنت عندما تتدبر أوصاف أهل الإيمان في الكتب السابقة كانت 'أعمالًا'، فمَثَلُ الصحابة الذين يطبقون القرآن في التوراة والإنجيل لهم أعمال.. أعمال سواء كانت أعمالًا قلبية أو أعمالًا بدنية، يكثرون من السجود، يكثرون من القيام ﴿سيماهم في وجوههم من آثر السجود﴾[الفتح: ٢٩]، متعاونين متكاتفين، ليسوا متناطحين.. ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾[الفتح: ٢٩].

مثل النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة ليس بالغليظ ولا بالفظ ولا بالصَّخاب في الأسواق، الأعمال دلالة على الحق.

لذلك عندما سأل هرقل أبا سفيان عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال بم يأمركم؟ وسأله عن أفعاله؛ فقال: ماذا يقول؟ قال: يأمرنا بالصلاة والعفاف والتقوى وصلة الرحم، هذا هو الكلام، قال: فماذا يفعل... هل يغدر؟ قال: لا يغدر، سأله عن كلامه وعن أفعاله ولذلك –والعياذ بالله– من الصد عن سبيل الله، مخالفة أفعالنا لما ننطق من الوحي، هذا من الصد عن سبيل الله.. ﴿وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله﴾[النحل: ٩٤] إن المسلمين عندما ينقضون العهود كثيرًا مع غير المسلمين يكونون –كما في سورة النحل– سببًا في الصد عن سبيل الله.

﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات(٦)﴾ لا بد للارتباط الحقيقي بالقرآن أن يثمر أعمالًا في حياة الناس فينتشر النور ويتحقق مراد الله –عز وجل– بانتشار هذا النور.

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد صلى الله عليه وسلم

❖ التكريم

إذًا يخبرنا الله –عز وجل– في هذه السورة أنه كرَّم بني آدم، وشرفه، واصطفاه، واصطفى بشرًا منهم وأنزل عليهم وحيه –سبحانه وتعالى– ليرفعهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور، هذا الحدث العظيم حدث في أماكن معدودة على الأرض، هذه هي أشرف الأماكن، أشرف البقاع، شهدت خير الأفعال وخير الناس، أيضًا هذه الأماكن هي نهاية العالم، أي أن أحداث النهاية تدور في هذه الأماكن، فشهدت البداية والنهاية، هذه الأماكن العظيمة لنزول الوحي، هي أيضًا بداية للصراع بين الحق والباطل، لأنه

طالما هناك وحي إذًا هناك مراد لله، وهناك أناس سيرفضون هذا المراد، فأنت تريد أن تطبق مراد الله، فيمنعونك فتحاربهم، هم يقاتلون في سبيل الطاغوت وأنت تقاتل في سبيل الله.. فشهدت البداية والنهاية.

هذا التكريم للأسف يُعرض عنه كثير من الناس، يرفض التكريم، يريد أن يكون في أسفل سافلين، مثلما فعل المنافقون عندما رفضوا الخروج في غزوة تبوك ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾[التوبة: ٨٧] قيل الخوالف: أي النساء، تقول له جاهد، يقول اتركني! تقول له من سيقعد هم النساء.. فيقول أنا أريد أن أقعد مع النساء! من شدة خوفه رضي أن يكون مع النساء، ومع الأطفال وأن يشبههم... هناك من يرضى بالدنية، يرضى أن ينزل، الله كرمه وأعطاه نعمة وقال له ستصبح إنسانًا سويًا، تحتاج إلى نور من الله، هذا هو النور، فيعرض ويأبى ويرفض.

فإذا أعرض تاه، وعاش في ضنك وظلمات ومشاكل وعنت ومشقة.. ومع ذلك يأبى أن يعود. فنجد الكثير من البشر –من الكفار– يكون لديه استعداد أن يجرب أي شيء إلا الدين. لذلك في آخر السورة يقول تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ(٧)﴾: لماذا لا تريد أن تخضع؟ لماذا لا تريد أن تذل لله؟ لماذا لا تريد أن تدين بمراد الله؟ مم تخاف؟

فهو صاحب الحكمة ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ(٨)﴾! أينما ذهبت تبحث عن حكمة بعيدًا عن الوحي فلن تهتدي؛ لأن الحكمة في مراد الله!

لماذا ترفض الخضوع لدينه؟ إذا كنت تبحث عن حكمة في غيره، فلن تجدها في غيره! ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ(٨)﴾؟ بلى.

فكرّم الله عز وجل بني آدم. لذلك الذي يصرف الناس عن القرآن هو يدنسهم، وينزل بهم إلى أسفل سافلين.

لذلك نجد الشيطان –عندما كرم الله بني آدم– قال: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾[الإسراء: ٦٢].. كما أن تكريم بني آدم كان في الجسد وفي الروح، الشيطان يقول: أنا سأغويهم ثم سأسيطر عليهم.

ما هو الاحتناك؟ الاحتناك: الذي يريد أن يقود الدابة –أعزكم الله– يضع اللجام في الحنك، ويضغط على حنك الدابة، فتتألم لهذه الضغطة، فتتجه وفق مراده لأنها تألمت؛ لأنه سيطر عليها!

هكذا الشيطان يسيطر عليك، على شهواتك، وأنت تتألم لتحصيل الشهوة، فتتحرك في الاتجاه الذي يضغط عليك فيه.. قال تعالى ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾[آل عمران: ١٥٥]: أي بذنوبهم! فالشيطان يمسك عليك شيئًا ويضغط عليك به... يستعمل الضغط ليسيطر على بني آدم، وأن تكون هذه هي صورة بني آدم –والعياذ بالله– يريد أن يصل إلى مرحلة من السيطرة أن يتبعه الناس كالأنعام!... متى سيفيقون؟ في النار! ...فيقولون له: لقد خدعتنا... فيكون رده: لا، ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾[إبراهيم: ٢٢] ..﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ﴾[ابراهيم: ٢٢]: أنا ناديت عليك وأنت استجبت.

فالشيطان يريد أن يغير الفطرة، لذلك قال تعالى مخبرًا عنه: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ [النساء: ١١٩]كما في سورة النساء.. والمعنى: يقطعون الآذان، أي يأمرهم ليشوهوا الفطرة.. فكما أنه يأمرهم ليشوهوا فطرة الحيوان، فكذلك يأمرهم أن يشوهوا فطرتهم.

لذلك الذي يتلقى إشعاعًا فكريًا كثيرًا بعيدًا عن القرآن، هو يقوم بعملية تشويه للنفس.

فهناك مثلًا أماكن فيها إشعاع، من يتعرض لهذا الإشعاع سيحصل له نوع من التشوهات في الخِلقة، ويمكن أن يؤدي إلى ظهور سرطان وأورام.. لذلك بعض الإشعاعات المستعملة في التجارب الكيميائية أو في تشخيص الأمراض لا يجب أن يتعرض لها الإنسان بكثرة؛ لأن تعرضه لها بكثرة يؤدي إلى نوع من التشوه.. كذلك هناك إشعاعات فكرية فيتلقى الإنسان أفكارًا ضالة، فيجلس أمام برامج يتلقى منها إشعاعات فكرية ضالة تشوه فطرته... بعدما يتلقى هذه الإشعاعات لمدة، يحاول أن يسمع كلام الله فيشعر أنه ثقيل عليه! ما الذي حدث؟ لقد تغير، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)[١٠].

كانت فطرته سليمة، لكن كثرة تلقي كلام بعيدًا عن الوحي تؤدي إلى التشوه.. **فعندما تسمع كلامًا كثيرًا من غير آيات، أنت تتغير وتتأثر حتى دون أن تشعر.**

[١٠] سبق تخريجه تحت رقم (٢)

تمر عليك ساعات يوميًا بدون قال الله وقال الرسول صلى الله عليه وسلم، كيف هذا؟! كيف توافق أن يكون كل الكلام الذي تسمعه خلال عشرات الأيام خاليًا من: قال الله وقال الرسول صلى الله عليه وسلم! هذا يحدث تشويهًا للفطرة!

فعندما يحدث للإنسان هذا التغيير والتشويه، يسمع القرآن فيشعر أن كلام الله سبحانه ثقيل؛ لأنه تغير -والعياذ بالله.

فقال الله عز وجل بعد بيان شرف أماكن الوحي وشرف نزول الوحي، وأن الإنسان لن يستقيم ويكون ﴿في أحسن تقويم(٤)﴾ ولن تستقيم حياة الناس إلا بارتباطهم بالقرآن، قال ربنا ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾: أي الذي بين أيديكم، ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء:٩]: أي أقوم في كل شيء.

بعد أن أخبرنا الله عز وجل بذلك، يخاطب المعرض منفردًا: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾! كأنه يأخذه بعيدًا عن المشاكل والناس والضغوطات والأضواء.. تعال هنا، وحدك، قف مع نفسك ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾[سبأ: ٤٦] ... ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ(٧)﴾؟ لماذا لا تريد أن تخضع؟ لماذا لا تريد أن تؤمن بيوم البعث؟

- ﴿بالدين﴾: قيل الدين هو يوم البعث، وقال بعض أهل العلم الدين هو الشريعة كاملةً،

لماذا ترفض؟ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ(٨)﴾؟ هل ستبحث عن منهج أحكم منه؟! لن تجد.

هل ستبحث عن منهج أرحم منه؟! لن تجد، ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الصافات: ٨٧]؟!

لماذا تتجه إلى غيره؟ لماذا تبحث عن شريعة غير شريعته؟ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ(٨)﴾.. إذًا كأن هنا إشارة: الذي ينتقد ويطعن في الشرع، هو ينتقد ويطعن في حكمة الله، لأن هذا كلام الله... الذي يقول أن الشريعة ليست مناسبة لكل زمان ومكان، وهي خاصة بوقت معين فهو يطعن في حكمته سبحانه! يجب علينا أن نفهم مآلات الكلام، فالذي يطعن في كل الصحابة هو زنديق يطعن في كل الشرع؛ لأن الصحابة هم الذين نقلوا لنا الشرع، فلو أنك طعنت في كل الصحابة، إذًا ليس هناك شرع وصل لنا... فهو يتزندق! هذه هي مآلات الكلام.

❖ الختام

لذلك الذي يطعن في الشرع يطعن في حكمة الله، فأي طعن في الوحي هو طعن في الحكمة... قال الله عز وجل في الختام: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ(٨)﴾؟ بلى، هو أحكم الحاكمين، ولا يتكلم إلا بالحكمة سبحانه وتعالى. تنزيل من لدن حكيم الحكيم سبحانه وتعالى أنزل هذا الكلام عليه.

فأي بحث عن منهج آخر هو ابتعاد عن الحكمة، وبالتالي اتجاه للعنت والمشقة، وبالتالي نزول إلى أسفل سافلين.

فهذه السورة تدعو إلى قبول التكريم من الله، تدعو إلى أن تقبل تكريم الله لك، وتكريم الله لك هو نزول القرآن، فعلى قدر ارتباطك بالقرآن تزداد تكرمًا وتشرفًا.

- (اقرأ ورتل وارتق)[١١]: هو يقرأ فيتكرم ويتشرف فيصعد.. لكن إذا ابتعد ينزل إلى أسفل سافلين -نعوذ بالله من ذلك-.

نسأل الله عز وجل أن نكون من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته، الذين يجاهدون به وينشرونه ويعملون بمراده سبحانه وتعالى.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

[١١] سبق تخريجه تحت رقم (٣)